الفصل الثاني

جولة في أرض واسعة

الهدف والوسيلة

كلما اتسع الهدف سهلت إصابته. ولكن ما العمل إذا كان المطلوب إصابة نقطة محددة؟ وتلخصت مهمتي ليس فقط في أن أكون في خازاريا وإنما كي أبرهن على أنها في الحقيقة خازاريا. وبعبارة أخرى كان علي أن أجد الآثار المقنعة لدرجة كافية لرفاقي المرتابين تماماً بذلك.

ولمّا كنت لا أستطيع التخلي كلياً عن الطريقة الكلاسيكية للتنقيب الأثري نويت أن أعثر على المكان الذي تظهر فيه المدافن أو القرى الخزرية. وكما تبين بعد شهرين إن كنت محقاً أو غير محق.

وفي ١٨ آب ١٩٦٠م لاقاني أ. أ. أليكسين في استراخان بترحاب وبدأت بعثة جديدة.

وفي هذه المرة كانت التجهيزات الميدانية بكل بساطة جيدة فقد كان تحت تصرفنا مسواة (ميزان للتسوية) وخريطة وخيمة وأكياس للنوم مع أسرة مطوية وسيارة مع السائق فيدوتيتش وبريموس (وبابور كاز للطبخ) والطاهي كلاف، وللتحرك في مجاري الدلتا كان معنا قارب بمحرك جميل وقبطانه ميخائيل الكسندروفيتش شوفارين المشارك حتى النهاية في أعمال البعثة الذي استحق بصدق الشكر على الدقة والفطنة والمواظبة وكذلك العطف على أعمالنا وكان لمعرفته بمتاهة مجاري الدلتا الفضل إلى حد كبير بنجاحاتنا.

واقترح أ. أ. أليكسين القيام بدلاً من التنقيبات التفصيلية باستطلاع واسع لكل المنطقة حيث يمكن أن تكون الآثار الخزرية وكان في هذه الخطة عنصر المخاطرة، فلو عادت البعثة في هذه المرة من دون لقى وإنما بالمشاهدات والاستنتاجات فلا أمل بالتوصل إلى جولة ثالثة. ولا سيما أننا تجاسرنا على رسم ووضع علامات لأربعة محاور: إلى الجنوب في الدلتا إلى البحر، وإلى الشمال على امتداد ضفة الفولغا حتى مدينة ساراتوفا. وإلى الغرب في سهوب الكالميك وإلى الشرق في رمال الرين لكي نفتش ونحن مارون بالطريق المساحة الجافة في

obeikandi.com

السنوات الأخيرة بسبب تراجع وقلة عمق بحر قزوين، وبقي الاتكال على أن نوفق بالعثور على الآثار الخزرية في هذه المساحة الواسعة.

الدلتا

إن الشعور الأول الذي يحس به عابر السبيل الواصل من سهوب إقليم استراخان الجافة إلى أي من مجاري دلتا الفولغا الكثيرة هو: - الدهشة، فمن الصعب أن تتصور بنفسك كم هذه المناطق الجغرافية غير مشابه بعضها بعضاً.

فعندما تنحدر من استراخان تنبسط من البداية على كل من جانبي المجرى المروج الخضراء ولكن سرعان ما تظهر على الضفاف سلاسل صغيرة من خمائل الصفصاف التي تصدر أوراقها الفضية حفيفاً عذباً والتي تتبدل عند أسافل المجاري بجدران من الكاميش[1] العالي أو خمائل التشاكان المشابهة لنصال السيوف القديمة برؤوسها الحادة المرتفعة إلى السماء. أما في المساء فتغرق الشمس تحت سطح مياه المجاري الملساء الصافية، ويظهر أن أشعة الغروب القرمزية تتخلل عمق الماء كله.

أديم الأرض يحيا وتطرطش الأسماك الكبيرة مراراً وتقف طيور البلشون (مالك الحزين) في المياه الضحلة عند الضفاف بانتباه وتسبح في الخلجان أسراب البط ويسمع في القصب أحياناً حفيف - إنه الخنزير البري يشق طريقه ذلك الوحش الوحيد الذي لا تعتبر الأجمات عائقاً في طريقه. وفوق ذلك كله ترتفع تلال بائيرو المستطيلة بافتتان وسحر فعلى قممها الجافة تقع الجزائر شبه الصحراوية في الوقت الحالي بأجماتها الشوكية من «قرص العنة» (نوع من الحشائش معروف حتى عندنا في سورية - المترجم).

وعند منحدرات التلال والروابي تقوم قرى القوزاق والروس، حيث يعيش هذان الشعبان منذ زمن طويل معاً، ويحترمان بعضهما بعضاً ويخرجان معاً لصيد السمك ويرعيان في المروج التي تغمرها مياه الفيضان قطعان الأبقار والخيول. ويخطر السؤال عفواً على البال - أليس هكذا عاش الخزر في القديم؟ لأنهم ببساطة لم يبتكروا طريقة أخرى للعيش في هذه الأماكن، ولكننا كنا بحاجة إلى اللقى.

وشابهت التلال الركامية في مجرى نهر البوشيم فعلاً المقابر القديمة، ولكن كيف ظهرت عند الاستكشاف بواسطة آبار السبر، لقد كانت ببساطة مجروفات

١- هكذا يسمون القصب هنا.

من قاع النهر عند تعميق المجرى الملاحي، وعثرنا فوق التل الأزرق[١] ليس بعيداً عن قرية زيلنكي على مقبرة كازاخية، وكانت حفر القبور العميقة غير مردومة وإنما مغطاة بالصفائح والتبن، ومحاطة بسياج من الطين ولكن هذه الحادثة كانت مهمة للمختص في علم الاثنوغرافيا (علم السلالات الإثنوسية - المترجم)، وليس لعالم الآثار والكتابات على الشواهد مكتوبة بأحرف عربية بخط دقيق للغاية أعطت تواريخ دقيقة للعثور - في القرن ٢٠م بالضبط.

وسافرنا في البحر عبر أضحال بيلينسكي واكتشفنا بأعيننا جزيرة مسطحة وسطحاً مائياً أملس بعمق الركبة، أما الطيور فسبحت في مياه عذبة مدفأة جيداً تارة وتارة وقفت تحت أشعة الشمس الساطعة، وبقيت الأسماك تظهر بين الأعشاب المائية بلونها الفضي ثم تختفي بلمح البصر دون أثر، وسرنا في الأرض القديمة لخازاريا على مستوى ناقص ٢٨-٢٩ متراً أخفض من مستوى المحيط[٢]. ولكن لم يكن هناك من لقى وأين يبحث عنها؟ - كان غير معروف!

وفي طريق العودة اقتربنا من قرية صغيرة جداً ملتجئة إلى سفح تل ستيبان رازين، وخرج للقائنا كازاخي مرحباً بابتسامة وداعياً الضيوف إلى البيت. وشربنا الشاي وبتنا وخرجنا صباحاً لتفتيش قمة التل التي تزينها نقطة جيودوسية (علام مساحة - المترجم) عالية وهنا كوفئنا على أرقنا من لسع البعوض وعلى مسالكنا الموحشة العقيمة في التلال غير المأهولة، وعند المنحدر الشرقي للتل كان قد بني معمل صغير للآجر وكانوا قد حصلوا على الغضار نحتاً من طرف التل بحيث تشكل قبل وصولنا حافة عمودية بارتفاع ٢٠م وعند إلقاء نظرة إلى الأسفل رأيت بقايا عظام بشرية بارزة من الحافة وكانت سكين الآثار /السكين التي يستخدمها منقبو الآثار/ معي وبدأت بالتنظيف على القبور وجلب رفيقي أ. أ. أليكسين وأصحابنا الأعزاء رفشاً وعملوا مكنسة بسرعة، ولا أذكر كم مضى من الوقت (أنا لم ألحظه ولا حسبته - يقول المؤلف عن نفسه) وشاهدنا هيكلاً عظمياً لرجل مستلق على الظهر، وكان عند الفخذ الأيمن سكين حديدية غير كبيرة، وعند مكان الأذن اليسرى - قرط - حلقة صغيرة من البرونز، وكان عند ناحية الرأس وعاء فخم مموج ومصقول لا يشبه أياً من الأوعية المعروفة حتى الآن وكانت الأرجل مقطوعة من عند الحافة.

١- في دلتا الفولغا كل تل وله تسميته.

٢- تقع بعض وهاد القارة الأسيوية أخفض من مستوى البحر المعتبر صفراً، ولذلك تستخدم هنا علامات الارتفاع الطبوغرافية مع إشارة ناقص.

اللقية الخزرية الأولى

وكانت حدود زمن الدفن دقيقة: فالسكين البرونزية فصلت حتى عهد العصر البرونزي عن النيوليتي (العصر الحجري الحديث) وطقوس الدفن التترية معروفة جيداً ومختلفة كلياً عن الذي اكتشفناه؛ وهذا يعني أن التاريخ الأعلى هو القرن ١٣م وبقيت بذلك الألف الأولى الميلادية، وفي دلتا الفولغا عاش الخزر في هذا الوقت بالذات ويعود الوعاء بحسب طبيعة الصنع إلى القرون ٧-٩م وبالأحرى القرن الثامن الميلادي لأنه ينتمي إلى الصنف ذاته بالرغم من أنه يختلف في التفاصيل عن الأوعية التي وجدت مراراً في الدون[١]. وتاريخها لا يرقى إليه الشك. وهكذا صار في أيدينا جمجمة خزرية ولم يبق مكان للشك.

والقسم الباقي من الطريق إلى استراخان قطعته وكأني في ضباب، ومهما كانت الوعود أو الخيبات التي يحملها الوقت المتبقي لنا فلا يمكن التحدث بعد الآن عن الإخفاق. لقد وجدت خازاريا.

السهوب

بانتهاء الطريق في الدلتا، ركبنا السيارة وتحركنا بالسهوب فأمامنا ثلاث طرق الأولى تمتد شمالاً على طول الضفة اليمنى للفولغا وكان هذا الطريق في الحقيقة بناء على طلبات الجيولوجيين ولكننا رأينا أنه من الملائم أن نحدد إذا لم يكن من المعروف مسبقاً عدم وجود آثار خزرية في المنطقة فبلا أي شك أنه يقع (أي الطريق) في الخاقانية الخزرية. والطريق الثانية - الجنوبية الغربية - تمتد عبر سهوب الكالميك

١- هكذا تسمى الحضارة السالتوفية.

والأراضي السوداء حتى شاطئ بحر قزوين ذاته. والطريق الثالثة كانت متجهة نحو الشرق في شبه الصحراء والرمال الوعساء (الزفزف) في ما وراء نهر الفولغا.

ولكي ينفذ مثل هذا البرنامج الكبير في الشهر الوحيد - أيلول، الباقي تحت تصرفنا فقد ترتب علينا السفر بسرعة، ولكن عند التحرك بسرعة تنخفض إمكانية المراقبة لأن أهداف التنقيبات كانت شظايا صغيرة من الأوعية الطينية التي اكتست بالغبار منذ ألف عام وامتزجت تقريباً بالتربة. فعالم الآثار يمضي سيراً على الأقدام ويتطلع من فوق إلى أسفل (المقصود مطرقاً برأسه إلى الأرض - المترجم) أما هنا فمن الضروري تخمين مكان التنقيبات من كابين (صندوق) السيارة المنطلقة بسرعة، ولا شك أن كثيراً من اللقى كانت غير ملحوظة ولذلك نحن وجدنا طريقة جديدة للتنقيب، صارت الطريقة الأكثر فاعلية للتنقيب فيما بعد وفي الأماكن الضحلة التي بالكاد نتلمس الدلائل فيها تعلمنا أن نحزر الأماكن التي توقف الخزر ومعاصروهم فيها فيما مضى من قبلنا، وشقت السيارة العتيقة طريقها عبر الرمال الصفراء الحارة وعلى الجوانب نتوءات رملية صغيرة بارتفاع حتى نصف متر مغطاة بالنباتات الشوكية. وليس من رغبة إطلاقاً لإيقاف السيارة والوقوف على الأرض. وفجأة أصبحت الطريق مستوية وتمتد من على جانبيها مساحات مستوية من التاكير (نوع من النباتات الصحراوية - المترجم) الطيني النامي المغطاة بزخرفة من الشقوق، وبينما كان السائق جاهزاً ليضغط على دعسة الوقود (لزيادة السرعة) أوقفت بطريقة حدسية تقريباً السيارة وقفزت منها ماشياً مطرقاً برأسي نحو الأرض. نعم كانت هناك قطعة ثم أخرى وسريعاً - حفنه كاملة من بقايا خزف (فخار) عهد القرون الوسطى.

وتابعنا من جديد المضي قدماً وبعد وقت طويل لم يعد هناك رغبة للسير ثانية لإمعان النظر بالأرض.

والآن أنا أعرف لماذا صنعت اللقى هناك.

إن المساحة الطبيعية المستوية المتشققة من الحرارة - هي قاع قديم لبحيرة صغيرة أو نهر ضحل، فهناك حيث كانت المياه العذبة توقفت القوافل والرعاة للاستراحة وهناك كسروا، بعدم حيطتهم أو قلة انتباههم، القدور ورموا بالقِطع التي بحثت عنها بدأب، ولكن يبدو أني لم أدرك ذلك فقط وإنما شعرت به.

ويمكن إيراد الكثير من مثل هذه الأمثلة ولكن المبدأ يبقى واحداً - إن قراءة أديم الأرض - وهو ظاهرة جغرافية ملموسة تقريباً - تبدو هي الطريق الأصح للتنقيب الأثري، ولكننا تعلمنا هذا الأمر فقط في الطريق الطويل الذي سنعود لوصفه في حينه.

وهكذا تحركنا إلى الشمال وخلال عدة ساعات بعد ذلك صارت استراخان في الخلف وأخذ أديم الأرض بالحديث، فقبل إينوتاييفسك امتد السهب الطيني المعروف عندنا سابقاً والمنحدر عمودياً تقريباً نحو السطح الأزرق السماوي للفولغا الذي يجرف الشاطئ.

وعلى الضفة الأخرى اعشوشبت الأرض التي تغمرها مياه الفيضان وفهمت من غير قصد القول من رسالة الملك الخزري يوسف «بلاد (نا) لا تتلقى الكثير من الأمطار، يوجد فيها أنهار كثيرة، ويتكاثر فيها الكثير من الأسماك ويوجد (أيضاً) فيها عندنا كثير من الينابيع، بلادنا خصبة ومثمرة تتكون من حقول وبساتين وحدائق وتسقى كلها من الأنهار.. أنا أعيش داخل جزيرة، حقولي وكرومي وبساتيني وحدائقي واقعة في داخل جزيرة». فإلى أي حد كان الوصف دقيقاً! وهاد خضراء تشبه الدلتا من حيث أديم الأرض، جزيرة ليس فقط لأنها محدودة بمجريين قويين - الفولغا وآختوب. وإنما لأن هذه القطعة الصغيرة من الأرض الخصبة هي في وسط هذه السهوب التي لا حد لها (اللا متناهية) الصالحة فقط للرحل. وفي مؤلفات القرون الوسطى العربية تستخدم كلمة «جزيرة» أيضاً للأحراج في وسط السهوب (كما قلنا «غابة جزيرة») وكذلك لأي أرض محددة. ويمكن أن الملك يوسف استخدم هذه الكلمة بهذا المعنى أو غيره.

وأخذت الأرض شمالي مدينة فولغاغراد بالتغير، فالفولغا جرى بمجرى واحد قوي وتغطى السهب الأجرد بالتلال المنحدرة تدريجياً وتخترقها غابات نامية في وديان عميقة، وحتى الهواء تغير وصار رطباً وحاداً وقارساً وأخذت تسبح في قبة السماء الزرقاء غيوم متقطعة. ولم يكن هناك شك في أننا صرنا في بلاد أخرى. وربما تسكع هنا في العهد الخزري البورتاسيون الغامضون والمحاربون الأوغريون أسلاف المجريين وأعداء الخزر الألداء، ويمكن التصديق أن الخانات والملوك الخزريين حافظوا على هذه المنطقة بالقوة الرهيبة لقواتهم المرتزقة بطاعة نسبية، ولكن الناس المعتادين على الطبيعة المعتدلة وحتى العطرة يجب أن تبدو لهم هذه البلاد التلية الباردة نسبياً غير غريبة، وتوقفنا عند كل موقف خصيصاً عند الجداول في الوديان وعند المضائق عبر التلال وبحثت بدقة عن الخزف الخزري ولكني لم أصادف ولا قطعة واحدة ولا فائدة من السفر لأبعد. ومن ساراتوف تحولنا إلى الجنوب - الغربي وعدنا إلى السهب الكالمكي إلى ضفاف بحيرات ساربينسك.

ولم يتم اختيار هذا الطريق من قبلي مصادفة، ففي المناقشات العلمية الحادة مع م. إ. ارتامونوف والأكاديمي ب. أ. ريباكوف أبدى اقتراحاً بأن عاصمة الخزر وقعت هنا بالذات «القبائل نصف المتوحشة، الضارية السهبية» وتبدو هذه المسألة مقنعة على الخريطة، ولكن كان يكفي القدوم إلى المكان لنفي أي شك بأن - عاصمة الخزر لم تكن ولا يمكن أن تكون هنا، وبحيرات ساربينسك هي الآن - برك ضحلة مغطاة بالقصب، ولكن حتى لما كان المناخ أكثر رطوبة وكانت البحيرات أوسع وأعمق ظلت وهاداً مغمورة بالماء وليس لها ضفاف صلبة يتبدل شكل محيطها من الربيع إلى الخريف. واستطاع عدد قليل من السكان الحصول على الغذاء في هذه المنطقة. ولكن لم يحدث لأي كان أن بنى مدينة هنا، وفي الحقيقة لم نجد في المروج المنخفضة الخضراء بين البحيرات ليس فقط متاريس

(أسوار) مدن وإنما حتى قطع أوعية رغماً عن التوقف الطويل قبل الطريق التالي إلى الجنوب.

وتؤدي إلى شواطئ بحر قزوين ثلاث طرق للسيارات: الأولى تمتد بالقسم العلوي من الكاليميك عبر أراضٍ منسوبها المطلق أعلى من مستوى المحيط. وهنا تعلو سلاسل صغيرة من التلال (فوق القبور القديمة) العالية من العصر البرونزي التي لا تمت بصلة إلى الخزر وتنتهي الشرقية منها بالقرب من ضفة الفولغا ولو كان لها أهمية ما لكانت اكتشفت من قبل علماء الآثار الاستراخانيين، ونحن اخترنا الأوسط وهو الطريق الأكثر استقامة، وتقع نهايته الشمالية عند ضفة الفولغا بالقرب من قرية فلاديميرسكي على بعد ٢٥كم جنوب إينتوتاييفكي، ولقد كنا منطقيين في أن طريق السيارات تسير على الأرجح على خط طريق القوافل القديم لأنه من هذه النقطة على الضفة اليمنى لنهر الفولغا خرجت في كل ربيع قافلة الخاقان الخزري ترافقه المروج الجنوبية الخضراء على ضفاف نهر أوغ - رو فإذا كان هذا الافتراض صحيحاً، كما فكرت أنا (يقول المؤلف عن نفسه) فإننا سنجد على جانبي الطريق آثار الخزف منذ العهد الخزري ولو كانت قليلة فالطريقان القديم والجديد لا يمكن أن يتطابقا على المسافة كلها، ولكن في هذه السهوب اللا متناهية أين هو العلام إن أردته؟ وفي الحقيقة بعد مسير يوم من الطريق إلى الجنوب من بحيرات سارابينسك وجدنا الرواسب /البقايا/ الأولى من كسرات خزف القرون الوسطى من ما قبل العهد التتري وكانت الكسرات صغيرة وبحالة رديئة «غير معبرة» كما يقول علماء الآثار. ولكن حتى الآن لم يكن ثمة شيء آخر.

ومن هذه اللحظة عادت الطريق إلى الحياة بالنسبة لنا، لقد تلوت بين الرمال، ونمت النباتات الشوكية الجافة بين منحدرات النجاد التي لا يجوز حتى تسميتها تلالاً، وفي الجنوب بدأت تصادف برك مستطيلة من المياه المالحة ووحل كاوٍ (قلوي - المترجم) عند إطار السائل المالح وهذا ابتداء «منطقة سبخات السهوب» (أي سبخات أماكن تحول المناطق الحراجية أو الجبلية إلى سهبية - المترجم) التي هي آثار تراجع بحر قزوين.

وقديماً عند فجر الحضارة البشرية منذ نحو ١٥ ألف عام قبل الميلاد عندما سالت مياه الذوبان الجليدي الأخير في مجرى الفولغا استوعبها بحر قزوين وارتفع مستواه إلى المنسوب المطلق زائد ١م أو ما يقارب ذلك وهذا يعني إلى ٢٩-٣٠م أعلى من مستواه الحالي ولكن عندما ساد العصر الحرجفي (المتسم بالحرارة والجفاف - المترجم) بدأ تراجع البحر وكانت مرآة التبخر هائلة وتضاءل العمق عند الأراضي المغمورة وتحولت المياه تحت الشمس الساطعة إلى بخار وتراجع البحر وحجز في الوهاد والمنخفضات وصار بحيرات مالحة، وهكذا نشأت «منطقة سبخات السهوب» التي تأقلم معها الإنسان في العصر الباليوليتي الأعلى (الحجري الحديث - المترجم).

وعلى ضفة إحدى هذه البحيرات المالحة وجدنا لقية تركتها لا مبالياً ولكنها أثارت للغاية اهتمام رفيقي. فهناك استقرت شظايا صوانية وعظام مكسرة وعدة بلاطات من الطين الصمغي بسماكة ٠.٥م بأشكال غير منتظمة.

وكان هذا موقفاً نموذجياً من العصر الحجري ولم يكن هناك شيء يسترعي الاهتمام سوى أن البلاطات الصفحية كانت بحسب تقدير الجيولوجي أ. أ. أليكسين منقولة من سلاسل جبال القوقاز.

والصورة كانت واضحة: جاء الناس خلف البحر المتراجع ملاقين الغذاء في البحيرات الضحلة - الأسماك والرخويات والسرطانات وبيوض الطيور المائية والمادة التي عثرنا عليها كانت قليلة التعبير للغاية بحيث كان لا يمكنها تدقيق تاريخ تراجع البحر، وإنما كانت مهمة لأن مثل هذا الارتفاع لمياه قزوين كان فقط في العصر الباليوليتي (الحجري) وقطعاً ليس الفترة التاريخية التي تهمنا. ووجدنا لقى أخرى مشابهة في مرتين ثانيتين ولكنها لم تضف شيئاً إلى النتيجة الأولى ومهمة فقط للدور الجيولوجي وقطعاً لا لتاريخ القرون الوسطى.

وتنبسط المناطق الجنوبية من السبخات السهبية في سهل واسع يسمى «الأرض السوداء» التي هي قاع بحر قزوين الذي جف في مرحلة ما قبل التاريخ. ويحدها من الغرب ذيل [سلسلة جبال] سهوب الكالميك وتتدرج بانسجام من الشرق إلى القزوين حتى إنه من الصعب تحديد خط الشاطئ لأنه مرتبط باتجاه الرياح، فالرياح الغربية تطرد المياه كاشفة القاع والشرقية تأتي بكمية هائلة من المياه تغرق الشاطئ كلّه إلى عدة عشرات من الكيلومترات.

وأطلقت تسمية «الأرض السوداء» على هذا السهل القاتم لأن الثلج يسقط هنا قليلاً جداً في الشتاء ويمتزج مع الغبار الدقيق والرمل.

إلا أنهم في وقت الشتاء بالذات يسوقون قطعان الأغنام إلى هنا للرعي من داغستان والكالميك حيث ينبت في هذا السهب المتموج الشعير والجودار والشيح الأبيض وهو الغذاء الأفضل للأغنام والكمية القليلة من الثلج لا تعيق الرعي ويعمر السهل في هذا الوقت ولكن لفترة قصيرة، وفي الصيف تحرق الشمس العشب الذي لم ترعَه الأغنام وتتحول الأرض إلى صحراء ثم في الخريف تسقط الأمطار وتغرق المنخفضات محولة الطرق إلى سيول من الأوحال، وبعد الأمطار ينتعش السهب وفي أيلول تسمن الأغنام ثانية بالشحم الضروري لكي تحتمل الشتاء القاسي.

ومن دون الأراضي السوداء وسهوب النوغاي المجاورة لها كان من الصعب أن تتخيل اقتصاد مربي الماشية في مناطق سهوب القزوين في أي عصر من العصور ولكن عدم توفر ينابيع المياه العذبة سبب عدم وجود القرى والمقابر بالذات لأن الناس يدفنون بالقرب من منازلهم وليس في ديار الغربة ولو أنها مألوفة لتربية الماشية، ومن وجهة نظر عالم الآثار كانت الأراضي السوداء نافعة جداً ولكنها غير صالحة للإقامة الدائمة.

وسافرنا في الخريف الباكر وشعرنا بحدة بعدم وجود الناس المطلق وانعدام الحياة الكامل، وفقط ظهرت لقيتان من الخزف من العهد الخزري ظهرتا بالقرب من الطريق، أي منذ ألف عام مضت مر الناس عبر هذا السهل ولكن كان من الواضح أنهم لم يعيشوا في هذه الأماكن.

ومن بعد لم يعد هناك شيء للبحث عنه ولم نستطع الوصول إلى نهر التيريك وعدنا أدراجنا إلى استراخان، والآن صار من الصعب معرفة فيما إذا استولى الخزر حتى على السهول شمال - غرب مناطق القزوين أو عاشوا في أماكن أخرى أكثر ترحاباً وملاءمة.

obeikandl.com

الصحراء

في صباح أيلولي بارد ولكنه صاحٍ سارت سيارتنا بسرعة عبر جسور مجاري الفولغا وانطلقنا بسرعة على ضفة نهر آختوب الذي نعرفه، ثم دارت إلى الشرق وأصبحنا في وسط السهل الواسع شرقي الدلتا، وكم هو غير مشابه للدلتا المركزية! لقد حول تناقص كمية المياه التي يأتي بها الفولغا خلال القرن والنصف الأخيرين هذه المناطق إلى سهب جاف يروى من المجرى الأخير الذي لم يجف - الكيغاتش - النهر القوي المطوق بالصفصاف والقصب النامي، وما زالت بجوار الكيغاتش بقع خضراء من المراعي ولكن القسم الأكبر من السهل كان جافاً وبين تلال بائيرو المنحدرة تدريجياً التي تحد هذا السهل من الشمال بحيرات مستطيلة مقحمة بين هذه التلال وهي بقايا مجاري الفولغا السالفة التي تحولت إلى عجائز، وهذه البحيرات التي تسمى هنا سبخات تملحت لأنها منذ زمن طويل لم تعد مياهاً جارية، غير أنها كانت كذلك وللبرهان على ذلك اكتشفنا على قمة أحد تلال بائيرو ركاماً كبيراً من الفخار، وهذا يعني أن الناس الذين عاشوا هنا كان عندهم مياه عذبة، وتبين أن الفخار يعود إلى عهدين، فقسم منه له ميزات عتيقة ويحتمل أنه يعود إلى العصر البرونزي والقسم الآخر كان معروفاً جيداً فهو فخار خشن، طري، من العجين الأسود مع الرمل الخشن المشوي بصورة سيئة بحيث لدنت واسمرت فقط جدران الأوعية بلون داكن، وفي الوسط ظل الطين أسود وعندما تفحص هذا الفخار بالكسر يبدو ثلاثي الطبقات ببطانة سوداء من الداخل، وهكذا يتم الحصول على الأوعية المشوية بالمواقد، ويصادف مثل هذا الفخار في مناطق البايكال وكازاخستان وتركمانيا. ووجد حتى عند الدون أثناء الحفريات عن قلعة ساركيل وهو مؤرخ بدقة من القرون ٧-١٠م. ويدل انتشاره الواسع على تشابه حضارة القبائل التيوركية الكثيرة العدد التي ترحلت في ذلك الزمن في سهوب قارة أوراسيا. وعاش الغُزّ في القرون ٧-١٠م في سهوب ما وراء الفولغا ولذلك لم يكن هناك أي شك في أننا عثرنا على أماكن مضاربهم (أماكن توقفهم).

وفي حقيقة الأمر كانت هذه هي اللقية الأولى المعبرة لدرجة كافية والمؤرخة خارج حدود دلتا الفولغا ومن بعدها جاءت اللقى الأخرى.

وأخذ الفخار الغُزّي يصادف بكثافة في المناطق شبه الصحراوية المجاورة لسهول الدلتا بالقرب من الحدود الطبيعية لمرتفعات آزاو الطينية عن هذه النجاد التي جاءت بها الرمال السطحية التي تسفها الريح بسهولة حتى التربة القارية السمراء الداكنة مشكلة ما يسمى بحفر الحت.

ووجدنا في كل نتوء تقريباً عدة كسرات أحياناً من القدور الغُزّية وأحياناً أخرى كدساً كاملاً منها. وعلى ما يبدو أن هذه المناطق كانت في القرون ٧-١٠م مأهولة وهذا

يعني أن المياه لم تكن بعيدة والنبع الوحيد يمكن أن يكون هو النبع العتيق الجاف الآن ما عدا بعض البرك المالحة في أكثر أماكنها انخفاضاً والنتيجة التي تخطر بالبال هي: في القديم وبالضبط في العهد الخزري لم تكن مجاري الفولغا هي نفسها التي نراها الآن. فعلم الآثار قربنا من مسألة مراحل تشكل أديمات الأرض ومن تحديد تواريخها الفيزيائية - الجغرافية المطلقة التي لا يمكن الوصول إليها بأي طريق آخر.

ولكننا لم نستطع التأخر من أجل النتائج التي سيتم الحصول عليها ولم نُرِدْ ذلك فقد جاء الخريف ونحن لم نفتش بعد رمال الرين المشهورة، ومضى يوم على مسيرنا نحو الشرق على طريق ملساء ممهدة بسرعة جنونية ولاحت للأنظار مرة بعد أخرى وتوارت القرى والأوولات الكازاخية (قرى الكازاخ - المترجم) وفي هذه الأماكن التي يشبه بعضها الآخر يبدو واضحاً توفر المادة الوحيدة للبناء وكذلك المناخ المكونان ظروفاً واحدة لحياة الروس والكازاخ قد أجبرا السكان المحليين على اختيار طراز معماري متماثل، وقد احتفظت بهذا من أجل الأعمال القادمة لأنه من الصعب التأمل عندما تسوط الريح المضادة الوجه وتنفذ حتى العظم ولا يوجد مكان تحتجب به وأنت جالس في سيارة مكشوفة.

وأسرعنا لأنه في الأماكن الغاصة بالسكان على امتداد الطريق لا يتوقع الحصول على لقى وأصبح الوقت قليلاً! وفي النهاية بعد المبيت في خيمة باردة استدارت السيارة بنا إلى الشمال من قرية غاينوشكينا، وفي فجر ضبابي خفيف شاهدنا تضاريس رملية عالية متوجة بممرات غريبة الشكل من شجيرات الأثل.

وهدأت الريح ورقد الرمل ساكناً متلوناً بألوان متغايرة في أشعة الشمس العالية المتلألئة كاللؤلؤ الأصفر والرمادي، وشمخت مرة هنا ومرة أخرى هناك فوق الرمل أجمات من الأعشاب الطويلة الجافة. فالصحراء انتعشت وتنفست. وتلوى بجانب أثر مرور عجلات سيارتنا العريض طريق

رمال الرين

القوافل التي دارت حتى حول التلال غير الكبيرة لأن الناس الذين داروا من حولها حرصوا على قوى دواب حملهم وأردت أن أعرف - من شق هذا الطريق وحافظ عليه، وحصلت عن الجواب على هذا السؤال فوراً. انفتحت فجأة بين سلسلتين من

الكثبان العالية على الجانب الأيسر من الطريق حفرة حت عريضة (نحو ١٠٠م) وطويلة (نحو ٢٠٠م).

وكان في قاعها بئر بحواف منهارة، وعلى الأرجح لم يحاول أحد منذ زمن بعيد الحصول على الماء من هناك. ولكن من حول البئر وفي الحفرة بالكامل كانت الكسرات ملقاة بإهمال بكميات هائلة، وهنا كانت معروفة لنا الكسرات المخططة (الغُزّية) والحمراء الغامقة «التترية» والرمادية المصقولة «السرماتية» والكسرات الرقيقة الدقيقة التفاصيل من الطين الفاخر المترسب - من عصر البرونز - وحتى شظايا القارورات الزجاجية من القرن الثامن عشر. فالطريق أدت بالتأكيد إلى البئر، والآن أصبح من دون شك أن الناس مروا بها أيضاً في الماضي القديم. وامتد الطريق فيما بعد إلى الشمال عبر البلدة الكازاخية الصغيرة سازدي حيث كانت البئر الثانية ولكن لم توجد هناك مثل هذه اللقى وصودفت كسرات متفرقة أما البقية على ما يبدو فكانت مغروسة في التربة من دوس القطعان.

وظهر أمامنا لغز جديد: لماذا فضل الناس وعلى امتداد ألف عام الانجرار إلى شاطئ بحر قزوين غير المأهول، ذلك المكان الضحل للغاية وغير الصالح للملاحة بدلاً من أن يصعدوا أو ينزلوا بالفولغا الجميل حيث الطريق أفضل والمياه وفيرة وحيث يمكن التحرك بالنهر وعلى الضفاف، ومن الواضح أن طريق القوافل الذي وجدناه يؤدي من بلاد حضارات الشرق الأدنى وإيران وخوارزم إلى بيرم العظمى (بيارميا). ومن أجل القادة البيارميين قدم الملوك الاسكندنافيون بناتهم، وزد على ذلك، اعتبروا ذلك شرفاً لهم وحصل شاهات الفرس من هناك على الفرو ودفعوا لقاءه الصحون الفضية الفاخرة التي سَلِمَ قسم ضئيل منها من عاديات الزمن وحفظ في قسم الشرق من متحف الأرميتاج الوطني، ووصف رحالة القرن العاشر الميلادي أحمد بن فضلان الطريق عبر بلاد الغُزّ؛ والطريق التي سرنا بها كانت إما هي نفسها أو واحدة من عدة طرق تصل الشمال بالجنوب. ولكن لماذا امتدت بأماكن على ما يبدو غير ملائمة - وهذه معضلة أخرى أيضاً كان علينا حلها.

وأبسط حل اتخذناه على الفور كان تحويل السيارة إلى الجنوب واتباع الطريق بالسهل العريض لشاطئ قزوين الجاف لكي نعثر هناك على بقايا المرفأ الذي ابتدأ منه ذلك الطريق. وخلال عدة ساعات من طريق العودة خرجنا من رمال - الرين مجتازين منطقة ضيقة من طريق عمومي السيارات والحقول المتاخمة له، وسرعان ما ظهرت لنا المروج الخضراء والقصب النامي بطول قامة الإنسان مرتين واحداً بعد الآخر بسرعة، وهذا السهل كان منذ ٣٠ عاماً من قبل مغطى بالماء ولكن مستوى البحر انخفض بمقدار ٣ أمتار كاشفاً عن القاع وهنا بدأت مفاجأة جديدة.

على قاع البحر

بالتأكيد لا يمكن الحديث عن أن الطريق كان ظاهراً أنها كانت سليمة في الرمال القليلة الارتفاع بالدرجة نفسها كما في الأماكن المطروقة والمزروعة. واعتبرنا أن التنقيبات ستكون صعبة ونوينا الاستدلال على لقى المواد المرفوعة وهذا يدل على ذلك الفخار نفسه الموجود على سطح الأرض.

ولكن بانتشارنا بالسهل لم نجد ولا كسرة واحدة وعبثاً تحركت السيارة إلى الغرب وإلى الشرق مشيت بلا هدف عدة ساعات مطرقاً برأسي نحو الأرض عبثاً، وفتشنا مساحة هائلة ولم نعثر على شيء وظهر لغز جديد (ألم يطفح الكيل؟): لماذا كسر الرحل أوعيتهم فقط في الأماكن المرتفعة؟ إن تدبير مثل هذه المشكلات كان مستحيلاً ونحن أعدنا تشكيلها هكذا: لماذا نعثر على فخار ما قبل القرن ١٠م فقط في المرتفعات... ولحسن الحظ انتبهنا إلى ممر ممهد مربوط لأقرب نقطة علام على الخريطة، وجميع اللقى التي استخرجناها لم تكن أخفض من ناقص ١٨م عن الارتفاع المطلق ويمكن أن يكون هناك جوابان على هذا: إما مستوى بحر قزوين كان في الألف عام الأولى مرتفعاً هكذا أو حدث طغيان البحر بعد القرن العاشر الميلادي ومتحولاً فيما بعد إلى انحسار. ودلت الوقائع على خلاف ذلك ففي عام ١٢٣٤م بني برج محصن بالقرب من باكو ووقع (وكان) أساسه عند المنسوب المطلق ناقص ٣٢م وانغمر في أوقات متأخرة بالماء، والآن فقط يعلو فوق الماء ولكن ألم يبنوه على مكان جاف! وهذا يعني أن تراوحات مستوى بحر قزوين المسجلة من قبل الجغرافيين حدثت في فترة تاريخية ولا يمكن أن لا تؤثر على مصائر الشعوب المجاورة لبحر قزوين. إذن أليس هنا حل «السر الخزري».

ولكن سير أفكارنا وأعمالنا تحول بمغامرة مفاجئة غير ضرورية أبداً للرحالة ولقد سررنا لأن الأمر تم حتى الآن من دون هذه المغامرة.

وفي الوقت الذي توقف فيه أ. أ. أليكسين وأنا على بعد ١كم من بحر بعمق ٢سم أمام جدار كثيف من القصب وحمّلنا على الخريطة المعلومات التي حصلنا عليها ورسمنا مقاطع حفر السبر التي حفرناها آملين أن سائقنا فيدوتيش الذي دخل بين القصب مع بارودة الصيد سيأتي ببعض اللحم للغداء، صارت الأرض في الخيمة رطبة فخرجنا ورأينا أن القصب قد مال قليلاً من الريح الجنوبية الموريان (ريح حادة قوية تهب من البحر عند مصبات الأنهار وتكون شمالية عند مصبات الأنهار الشمالية وجنوبية شرقية في بحر قزوين والفولغا - المترجم) وفي كل مكان من الأرض تخرج المياه، وبالحرف الواحد، تحولت الوهاد التي بالكاد ظاهرة للعين إلى برك واسعة وتدفقت المياه بسرعة من خلال القصب أما السائق فيدوتيتش فقد انجذب للصيد في مكان ما ولم نستطع المضي لإيقافه.

وأخذنا القلق وعلمنا أن الرياح القوية تأتي بالمياه من البحر بارتفاع مترين وهذه «الهبات الريحية» كثيراً ما يحدث أن تكون سبباً لموت الصيادين أو الرعاة الغافلين، ولحسن الحظ كانت الرياح في هذه المرة غير قوية ونجحنا في طي الخيمة وتحميل السيارة وانتظرنا فيدوتيتش الذي أدرك عندما غمرت المياه كاحليه أنه من أجل النجاة بنفسه ونفوسنا يجب أن يضحي باللحمة، وظهر لما المرج الصغير من حول السيارة تغطى بمرآة ملساء من المياه الساكنة ومن دون أن يضيع دقيقة واحدة وثب إلى كبين السيارة. وكانت المياه بالنسبة لنا غير مخيفة ولكن الأسوأ من ذلك هو أن الأرض المشبعة بالمياه تحولت إلى طين ويحتمل أن تعلق السيارة بأي لحظة في الوحل وعند ذلك يقل حظنا في نشر نتائج البعثة إلى الحد الأدنى وأعرب فيدورتيتش عن حرفته التي وصلت إلى حد المهارة وتعثرت السيارة عبر المرج وتحاشت بشكل خيالي الأماكن العميقة متخلصة من الغرق وحتى اقتحمت الوهاد العريضة التي لم نلحظها عندما سافرنا إلى البحر براً ولكن بعد بضع الساعات هذه صارت حاجزاً مائياً. وفي النهاية سبقنا الماء وسارت السيارة بالسرعة العادية وتكون عندي سبب كافٍ لكي أتأكد من رجولة ورباطة جأش رفاقي.

ولكن بالوقت نفسه ظهرت فكرة - كيف نجا الخزر الذين لم يكن عندهم السيارات المخصصة للأراضي الوعرة من مداهمات المياه؟ بالطبع إن الارتحال عن المياه على الحصان أسهل من السيارة لأن الحصان يسير هناك حيث تعلق السيارة ولكن ذلك صعب على الأغنام، ومع ذلك فإن العيش تحت التهديد الأبدي بالغرق بطريقة ما لا يطاق، ثم ألا يعني هذا أن البحث في الشواطئ المنبسطة عن القرى الحضرية بلا فائدة وبالتالي عن ذلك المرفأ. الذي من أجل بقاياه دخلنا إلى قاع البحر. ومن البديهي أن الناس في القرون الوسطى سكنوا بطريقة ما ولكن كيف؟ ناهيك عن أن هذا الشاطئ لا يشبه المرج العامر والدلتا الغنّاء! فإذا سكن الخزر حول تلال ستيبان رازين فالسهل الشرقي كان غير ملائم لهم إلى درجة كبيرة مثل السهوب الغربية.

واكتسبت أفكاراً مشابهة في استراخان وودعت صديقي الجديد أ. أ. أليكسين واتفقنا على أن نكتب المقالة عن خازاريا معاً، وبقي لمدة شهر أيضاً على ضفاف الفولغا المغمورة بالشمس، وسعيت تحت رذاذ المطر فوق آلة التسوية لكي أقوم بعد الشتاء برحلة جديدة ولكن في هذه المرة لا بالمكان بل بالزمان.

obeikandi.com